الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد
UNIVERSITÉ DE TLEMCEN

كلية الآداب و الفنون
قسم اللغة والأدب العربي

مقياس : نظرية الرواية
ليسانس السداسي السادس
تخصص: دراسات نقدية
إعداد : أ.د محمد ملياني
العام الجامعي 2026/2025

محاضرات في نظرية الرواية

المحاضرة 10: المبدأ الحواري عند ميخائيل باختين

المبدأ الحواري عند ميخائيل باختين وتجلياته في الرواية الحديثة

شهد النقد الأدبي في القرن العشرين تحولات عميقة مست البنية المفهومية لفهم النصوص السردية، وكان من أبرز هذه التحولات ما قدمه الفيلسوف والناقد الروسي ميخائيل باختين من خلال مفهوم "المبدأ الحواري (Dialogism). "فقد نقل باختين مركز الثقل من سلطة المؤلف الأحادية إلى فضاء تفاعلي تتعدد فيه الأصوات وتتقاطع الرؤى، مما أتاح فهما جديداً للرواية بوصفها بنية مفتوحة على الاختلاف والتفاعل.

أولاً: تعدد الأصوات (Polyphony) وبنية الرواية الحديثة

يعد مفهوم "تعدد الأصوات" من الركائز الأساسية في نظرية باختين، حيث يرى أن الرواية العظيمة لا تقوم على صوت واحد مهيمن، بل على تفاعل مجموعة من الأصوات المستقلة. لا تمثل الشخصيات مجرد أدوات لنقل أفكار المؤلف، بل تمتلك وعيا خاصا، ومنظورا مستقلا للعالم.

تتجلى هذه الاستقلالية في أن كل شخصية تعبّر عن موقع اجتماعي وفكري خاص، مما يجعل الرواية فضاء لتعدد الرؤى. وهنا لا يكون المؤلف مالكاً للحقيقة، بل مشاركا ضمنيا في الحوار، يتيح للشخصيات التعبير الحر دون فرض حكم نهائي. هذا ما يحول الرواية إلى "أوركسترا فكرية" تتجاور فيها الأصوات دون أن تختزل في صوت واحد.

ثانياً: نقد المونولوجية وغياب الصوت المهيمن

يرفض باختين ما يسميه "المونولوجية"، أي الخطاب الأحادي الذي يفرض رؤية واحدة للحقيقة. في هذا النوع من النصوص، تتحول الشخصيات إلى أدوات تعليمية، ويصبح القارئ متلقيا سلبيا.

في المقابل، يقوم النص الحواري على مبدأ التعدد والانفتاح، حيث لا توجد سلطة نهائية تحدد المعنى. الحقيقة هنا ليست معطى جاهزاً، بل نتيجة تفاعل بين وجهات نظر متباينة. لذلك، يمكن تشبيه الرواية الحوارية بندوة فكرية مفتوحة، بينما تمثل الرواية المونولوجية خطابا تعليميا مغلقا.

ثالثاً: الحوار كبنية وجودية

لا يقتصر مفهوم الحوار عند باختين على كونه تقنية لغوية، بل يتجاوز ذلك ليصبح مبدأً وجودياً. فالإنسان، في نظره، لا يمكن أن يوجد أو يفهم ذاته إلا من خلال الآخر. كل كلمة ننطق بها تحمل أثراً لكلمات سابقة، وتنتظر استجابة لاحقة، مما يجعل اللغة سلسلة لا نهائية من التفاعلات.

ينبني هذا التصور على فكرة "الغيرية"، حيث يتشكل الوعي الفردي من خلال التفاعل مع وعي آخر. بذلك، يصبح الحوار شرطا لوجود المعنى، وليس مجرد وسيلة للتواصل.

رابعاً: تعدد اللغات داخل النص

يطرح باختين مفهوم "تعدد اللغات" للإشارة إلى وجود أنماط لغوية متعددة داخل النص الواحد، تعكس تنوع البنى الاجتماعية والثقافية. فالرواية تجمع بين لغات مختلفة: لغة الفلاح، ولغة المثقف، ولغة السياسي، ولغة العاشق، وغيرها.

يسهم هذا التعدد في كسر تجانس الخطاب، ويجعل النص مرآة للواقع الاجتماعي المتعدد. كما يسمح بتحليل الخطاب الأدبي بوصفه ساحة لصراع لغوي يعكس علاقات القوة داخل المجتمع.

خامساً: تجليات المبدأ الحواري في روايات دوستويفسكي

يرى باختين أن دوستويفسكي هو المؤسس الحقيقي للرواية متعددة الأصوات. ففي أعماله، لا تخضع الشخصيات لسلطة المؤلف، بل تمتلك وعيا مستقلا قادرا على الحوار والاعتراض.

1.استقلالية الوعي

تظهر الشخصيات بوصفها ذواتا مكتملة، لا مجرد تمثيلات. فالبطل لا يقدم كموضوع للتحليل، بل كذات مفكرة تحاور ذاتها والآخرين.

2.الحوار الداخلي

يتخذ الحوار في روايات دوستويفسكي بعدا داخليا، حيث تتحول النفس إلى ساحة صراع بين أصوات متعددة. الكلمة الواحدة قد تحمل موقفين متناقضين، مما يعكس تعقيد الوعي الإنساني.

3.الحقيقة بين-الذاتية

لا تظهر الحقيقة في شكل حكم نهائي، بل تتشكل من خلال التفاعل بين الشخصيات. إنها حقيقة "بين-ذاتية"، لا يمتلكها فرد واحد، بل تنبثق من الحوار.

سادساً: المبدأ الحواري كأداة نقد معاصر

تتجاوز أهمية نظرية باختين حدود الأدب، لتشمل تحليل الخطابات المعاصرة، مثل الإعلام والإشهار. إذ يمكن فهم هذه الخطابات بوصفها فضاءات لتداخل أصوات متعددة، يتم فيها إعادة توظيف لغات مختلفة لخدمة أهداف معينة.

كما يتيح مفهوم "الكلمة ذات الصوتين" تحليل ظواهر مثل التناص والتهجين، حيث يتم استحضار خطاب سابق وإعادة توجيهه ضمن سياق جديد.

يقدم المبدأ الحواري عند باختين تصورا جذريا للغة والأدب والوجود الإنساني، يقوم على التعدد والانفتاح ورفض الأحادية. فالنص الأدبي، وفق هذا المنظور، ليس بنية مغلقة، بل فضاء ديناميكيا تتفاعل فيه الأصوات وتتولد فيه المعاني باستمرار. بذلك، يغدو الأدب شكلا من أشكال الحوار الإنساني اللامنتهي، حيث لا توجد حقيقة نهائية، بل سيرورة دائمة من الفهم والتأويل.